التّماسك النّصي في رسالة الإمام علي (عليه السّلام) لمالك الأشتر
(العَطف والضّمير أنموذجًا)

م.د. مازن داود سالم الربيعي م.د. راسم أحمد عبيس الجريّاوي
جامعة بابل/ كليّة التربية للعلوم الإنسانية جامعة بابل/ كليّة التربية الأساسية

Text-Coherence in The letters of Imam Ali to Malik Al-AShtar:Co-ordination and Pronoun as a Sample

Dr. Mazin Dawood Salim Al-Rubei\ College of Education for Human sciences\ University of Babylon
Dr. Rasim Ahmed Ubies\ College of Basic Education\ University of Babylon
rasemahmed84@gmail.com mazndawd16@gmail.com

Abstract

The research deals with two important elements of text coherence ،namely co-ordination and pronoun for their effective role in achieving text coherence as they are manipulated deliberately in discourse process as well as their suitability for the orders that were submitted by Imam Ali. The research consists of an introduction of the concept of text coherence and its importance of in linguistic studies. The other sections are about co-ordinations and pronoun**.**

المُلخّص

يُعدّ مصطلح التّماسك النّصي من المُصطلحات التي ظهرت حديثًا في إطار اللسانيات النصّية، ويُعبر به عن التّماسك الوثيق والتّلاحم بين الوحدات والعناصر النصّية من خلال الرّوابط التي تنضوي تحت دائرة التّماسك.

والتّماسك النّصي يعطي أهميّة بالغة للنّص الأدبي على مستوى الجّملة أو الفقرة أو صلة الفقرة بأختها أو النّص بأكمله، فالنّص لا يستطيع أن يقوم من دون هذه الرّوابط النصّية؛ لذلك يُعد النّص مُفككًا غير مترابط من دون أدوات التّماسك النّصي التي تعمل على ربط الأجزاء مع بعضها كي تحقق قفزة نوعيّة في النّص الخطابي بإعطائها نغمة متناسقة ذات أجراس لا متناهية ومتشابكة فيما بينها، والمتلقي أو القارئ بوصفه عنصرًا فعّالًا لا يمكن إغفاله في إنتاج النّص، فهو يستطيع أن يميّز تلاحم العناصر أو الأجزاء عبر الجّمل النصّية التي كوّنها الباث وجعل منها نصًا متماسكًا، وهذا الأمر جعل من التّماسك النّصي أمرًا ضروريًا مهمًا لا يمكن بناء أي نص من دونه؛ ولذلك قيل إذا لم يكن في النّص تماسك فلن يكون من الممكن تسميته نصًا.

سنتحدث في بحثنا هذا عن عنصرين مُهمّين من عناصر التّماسك النّصي انمازا بكثرة دورانهما في رسالة الإمام علي (عليه السّلام) الى مالك الأشتر هما: العَطف والضّمير؛ لدورهما الفعّال في تحقيق التّرابط النّصي عند الإمام (عليه السّلام) ; إذ وظّفهما توظيفًا واعيا ومقصودًا في العملية الخطابية الأمر الذي جعلنا نخصّهما بالبحث والدّراسة، فضلاً عن مناسبتهما للأوامر التي طرحها الإمام، فأنّ هذه الأوامر يراد العمل بها في الوقت نفسه فالمناسب لها هو العَطف، أما الضّمير فجاء به لأنّ المُخاطَب مُحدّدٌ سواء أمباشراً كان المتلقي _ وهو مالك الأشتر_ أم غيرَ مباشرٍ، وهم النّاس الموصى بهم أو النّاس بصورة عامة.

تألف البحث من تمهيد نظري ومبحثين تطبيقيين، تناول التمهيد مفهوم التّماسك النّصي وأهميته في الدّراسات اللسانية الحديثة، ودوره في فهم النّص وتماسكه، في حين أختص المبحث الأول بالعَطف ومهاده النّظري وتطبيقاته في نصّ رسالة الإمام علي (عليه السّلام)، وعالج المبحث الثاني الضّمير ومفهومه وتطبيقاته، وأخيرا قائمة المصادر والمراجع التي استقى منها البحث أفكاره ونصوصه.

وختامًا نرجو من الله سبحانه أن يجعل عملنا هذا مُسددًا خدمة لأهل بيت النبوة، وأن يجعلنا من أتباعهم ومواليهم إلى يوم نلقاه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسّلام على رسوله الأمين، والأئمة الهداة المهديين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

التّمهيد

يُعدّ مصطلح التّماسك النّصي من المصطلحات التي ظهرت حديثًا في إطار اللسانيات النصّية، ويُعبر به عن التّماسك الوثيق والتّلاحم بين الوحدات والعناصر النصّية بوساطة الرّوابط التي تنضوي تحت دائرة التّماسك، ولذلك من الصعب تحديد مفهوم التّماسك بحدٍّ معين، نظرًا لكثرة المصطلحات التي تتداخل معه، ومن هذه المصطلحات: (الاتّساق والسّبك والانسجام والحبك والتّرابط) وغير ذلك.

وفضلاً عن هذا التّعدد فقد عُرِّف بأنّه: ((العلاقات أو الأدوات الشّكلية والدلاليّة التي تُسهم في الرّبط بين عناصر النّص الدّاخلية وبين النّص والبيئة المحيطة))[١]، زيادة على أنّه مصطلح ((يعبر عن التّماسك الدّلالي بين الوحدات اللغوية المكونة للنّص الأدبي، سواء أكانت في صورتها الجزئية أم الكليّة، وبه يحدث نوع الانسجام الدّاخلي التام بين وحداته، وتظهر في صورة لحمة واحدة تحمل خصائصها الذاتيّة والنوعيّة التي تتميز بها عن غيرها من النّصوص))[٢].

وهذا كله يعطي أهميّة بالغة للنّص الأدبي على مستوى الجّملة أو الفقرة أو صلة الفقرة بأختها أو النّص بأكمله، فالنّص لا يكتمل من دون هذه الرّوابط النصّية التي يطلق عليها أدوات التّماسك النّصي التي نأخذ بعضها ونقوم بتحليلها، فالتّماسك النّصي ((ذو طبيعة دلاليّة من ناحية، وذو طبيعة خطيّة شكليّة من ناحية أخرى، وأنَّ الطبيعتين تتظافران معًا لتحقيق التّماسك الكلي للنّص))[٣]، وهذا الأمر جعل من التّماسك يقوم على وظيفتين، إحداهما: شكليّة (لفظية)، والأخرى دلاليّة (معنوية) عميقة تحتاج إلى كدِّ الذهن لاستنباطها، وهاتان الوظيفتان قد تطرق لهما (فانديك) بقوله: ((إنَّ التّماسك يتحدد على مستوى الدّلالات، حين يتعلق الأمر بالعلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقارنات والمشابهات في المجال التصويري، كما يتحدد على مستوى الإحالة أيضًا، أي ما تحمل إليه الوحدات المادية في متوالية نصّية))[٤].

ويُعد النّص مفككًا غير مترابط من دون أدوات التّماسك النّصي التي تعمل على ربط الأجزاء مع بعضها كي تحقق قفزة نوعيّة في النّص الخطابي بإعطائها نغمة متناسقة ذات أجراس لا متناهية ومتشابكة فيما بينها، فالمتلقي أو القارئ بوصفه عنصرًا فعالًا لا يمكن إغفاله في إنتاج النّص، فهو يستطيع أن يميز تلاحم العناصر أو الأجزاء عبر الجّمل النصّية التي كوّنها الباث وأنتج منها نصًا متماسكًا، ما جعل من هذا التّماسك أمرًا ضروريًا مهمًا لا يمكن بناء أي نص من دونه فهو ((الكيفيّة التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النّص، ومعها يصبح النّص وحدة اتصالية متجانسة))[٥]، ومن هنا نتج تفاعل عميق متبادل بين النّص والقارئ؛ لأن المتلقي يسعى جاهدًا لإيجاد التّواصل بين الأفكار النصّية، واكتشاف التسلسل القائم بين معانيه، فهو غير محفور أو ذائب في النّص، بل يعد القارئ الفيصل أو الحكم في اكتشافه من عدمه، وهذا متأتٍ من استيعابه له، ومشاركته في إنتاج معناه، فضلًا عن زيادة أبعاد جمالية جديدة عليه قد لا تكون موجودة فيه من قبل[٦].

فمفهوم التّماسك يقود المتلقي إلى التفرقة بين النّص واللانص؛ فالنّص لم يعد مجرد مجموعة من الجّمل وجدت بطريقة اعتباطيّة، انّما هو عبارة عن مجموعة من العلاقات المفهومة التي يستعملها المبدع في كتابة نصّه، ويستعملها القارئ في فهم النّص الإبداعي[٧]، وهو ما عبّر عنه أحد الباحثين بقوله: ((هو وجود علاقة بين أجزاء النّص أو جمل النّص أو فقراته، لفظية أو معنوية وكلاهما يؤدي دورًا تفسيريًا؛ لأن هذه العلاقة مفيدة في تفسير النّص، فالتّماسك النّصي هو علاقة معنوية بين عنصر في النّص وعنصر آخر يكون

(١) علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة: ٢٠٠٠م: ٩٦.
(٢) أثر العَطف في التّماسك النّصي في ديوان (على صهوة الماء) للشاعر مروان جميل محيسن، دراسة نحوية دلاليّة، د. خليل عبد الفتاح، ود. حسين راضي العابدي، جامعة الأقصى، غزة، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، مج: ٢٠، ع: ٢، لسنة ٢٠١٢م: ٣٢٩.
(٣) علم اللغة النّصي: ٩٨.
(٤) علم لغة النّص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد البحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، دار نوتال، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م: ١٢٢.
(٥) علم لغة النّص، النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، تقديم: سليمان العطار، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٧٧، القاهرة: ١٨٤.
(٦) ينظر: التّماسك النّصي في ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، دراسة أسلوبية، كريمة صوالحية، كليّة الآداب واللغات، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر، باتنه، ٢٠١١م: ٢٥-٢٦.
(٧) ينظر: علم لغة النّص، عزة شبل: ١٨٥.

ضروريًا لتمييز النّص الذي يحمل مجموعة من الحقائق المتوالية))[١]، ولكي يؤدّي التّماسك دورا في بناء النّص فأنّ ذلك يتطلّب جهدا كبيرا لِتتجاذب عناصره وتتلاقح فيما بينها وتحدّد بيئتها المترابطة بنسيجها الممتد على طول النّص وهذا ما يكسب التّماسك موقعا مركزيًا عبر الوسائل التي اعطته أهميّة في عدم التشتّت حتّى أصبح التّرابط بين العناصر يشكّل محورا بنيويًا يساعد على فهم النّص ويخلّصه من التفكّك النّصي وهذا ما أكّده سمير شريف بقوله: ((إذا لم يكن في النّص تماسك فلن يكون من الممكن تسميته نصًا))[٢]، وهذا الأمر جعل التّماسك النّصي بنية تركيبيّة متماسكة ذات وحدة كليّة شاملة يستوجب وصفها السير وراء العلامات السيميائية الممتدة أفقيًا، والبحث عن الوسائل الرابطة بينها، فضلاً عن متابعة القضايا والمعلومات في باطن النّص، والتّماسك الدّلالي وأدواته وإمكانات الرّبط الدّاخلي بين الأجزاء الصغرى وتحديد المدى الذي يحتاجه النّص من العناصر والوسائل غير اللغوية لتحقق له الوحدة والانسجام والتّماسك[٣].

وبات من الواجب على المبدع أن يراعي في كتابته الإبداعيّة كل الأدوات والوسائل التي تنضوي تحت دائرة التّماسك النّصي بوصفه عملاً مهمًا يعمل على لملمة النّص وإخراجه بصيغة منمقة عالية الجودة وهو ما يتطلب جهدًا كبيرًا من المبدع لكي يستعمل أدوات الرّبط النصّية في أماكنها الصحيحة ليجعل نصّه نصًا مترابطًا مكتوباً على وفق صيغ نصّية ذكية وجمل مترابطة متماسكة مع بعضها ؛ لينتج عبر ذلك نصًا جادًا يمتلك شاعرية عميقة الأفق منتجة لمعاني غائرة في أسلوبها، زيادة على متلقٍ يتّصف بالإنتاجية والوعي حتى أصبح تحقيق التّماسك ((غير ممكن دون كفاءة تتخطى الشخص العادي، كفاءة المفسر الواعي، فهو الذي يبرز خواص أي نظام للتفكير، ويتصف بالدينامية، ويستند إلى أنواع مختلفة من المعارف))[٤]، وهذا الأمر جعل من دور القارئ مهمًا منتجًا لتوقعات نصّية جديدة عبر تدفّقه في بنية النّص وتدرّجه في القراءة وانطلاقه من بداية صحيحة دالة على الخطاب، وهذه المهمة التّماسكية تنطلق من كون التّماسك يعد خاصية نحوية للخطاب تعتمد على علاقة كل جملة منه بالأخرى، وهو ما ينشأ غالبًا عن طريق الأدوات التي تظهر في النّص مباشرة كأحرف العَطف والضّمائر ـ وهما محور دراستنا وأنموذج اختيارنا ـ والوصل والترقيم إلى غير ذلك[٥].

ووجود التّماسك النّصي في الخطاب لم يكن اعتباطاً بل جاء عبر وعي عميق لا يمكن لأي نصٍّ أنْ ينتظم من دونه، وليجعل منه نصّاً مستنداً إلى آليّات مدروسة ومعمّقة دالة على معاني مقصودة ومعنى ذلك أنَّ التّماسك: ((يعد عاملاً من عوامل استقرار النّص ورسوخه، وتكمن أهميته في عدم تشتيت الدّلالات الواردة في الجّمل المكونة للنّص))[٦]، وبيّنٌ أنَّ التّماسك النّصي علاقة مفتوحة بين عنصر في النّص وعنصر آخر يكون ضروريًا لتفسير النّص الذي يحمل مجموعة من الحقائق المتوالية، فإن توالي الجّمل سوف يشير إلى مجموعة من الحقائق وعلى نحو النّص أن يبحث ليكشف عن تلك العلاقة المعنوية بين مجموع هذه الحقائق أو الأدوات، هذه العلاقة المعنوية تأتي غالبًا عن طريق الأدوات في ظاهر النّص[٧].

ويتّضح مما ذُكر أرجحية مصطلح التّماسك النّصي عمّن سواه من المصطلحات بوصفه مصطلحًا يتناسب والرّوابط المتمركزة تحته.

المبحث الأول: التّماسك النّصي بالعَطف

يُعدّ العَطف من أهم الأدوات التي تحقق التّماسك النّصي مفككًا ؛ لأنه يتم عبر ((وسائل متنوعة، تسمح بالإشارة إلى مجموعة المتواليات السّطحية، بعضها ببعض، بطريقة تسمح بالإشارة إلى هذه المتواليات النصّية))[٨]، وهذا التّماسك الذي يحدثه العَطف يبقى

(١) نحو النّص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ٢٠١١م، القاهرة: ١٨٥.
(٢) اللسانيات والمجال والوظيفة والمنهج، سمير شريف، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠٠٥م: ١٩٨.
(٣) ينظر: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن البحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م: ٩٤.
(٤) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن: ٩٤.
(٥) علم لغة النّص، المفاهيم والاتجاهات: ١٢١.
(٦) علم اللغة النّصي، الفقي: ٧٤.
(٧) ينظر: علم النّص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي: ٩٨-٩٩.
(٨) علم النّص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي: ١٢٨.

وجوده في النّص بارزًا غير منفصلٍ يحتوي على علاقات قائمة مع بعضها، ويزيد من ديمومة النّص عبر العلاقة المنجزة بين المتلقي وصاحب النّص، فهو يعد بمثابة ((الرّبط بين حدثين يكون أولاً بالشّكل ثم ينعكس هذا الرّبط الشّكلي على محتواه الدّلالي، والعَطف باعتباره رابطة شكليّة من روابط النّص المختلفة يساهم في التحام أجزاء الكلام المبعثرة ويعطي لها تماسكًا شكليًا يؤدي إلى تماسكها دلاليًا))[١].

فالصّلة بين المعطوف والمعطوف عليه تجعل منهما شيئًا متماسكًا تربط بين أجزائه أدوات شكليّة، أي أدوات العَطف وروابط دلاليّة ناتجة عن المعنى، فيصبح النّص كالمفردة الواحدة متّسق المعاني منتظم المباني شديد التّرابط عميق الانتظام[٢]. ولعل في انتظام النّص واتساقه تجليةً كبيرةً لما يؤديه العَطف من دورٍ فاعلٍ في ترابط المعنى، إذ يصبح وجوده في النّص ذا جوهر رائق يقوم بوظيفة الارتباط النّصي عبر علاقات إرسالية وعلامات شكليّة توحي به، ولذلك عُدَّ السند الرئيس الذي يقوم عليه النّص ليؤسس دلالة لفظيّة ذات بناء متواز يكشف عن البنى الموجودة في الخطاب، لينتج عبر ذلك كله نظامًا محوريًا ثابتًا يدور بوساطته النّص ليجسد موضوعاته في سلسلة من الاحداث المتتالية ليسهم بدوره في عملية تماسك النّص بأدواته المتقاربة، وهذه الأهميّة المتحققة في النّص أتت عبر العَطف؛ لأن العَطف يعد وسيلة لتماسك النّص ويفرق عن الإحالة؛ لأنه لا يتضمن إشارة موجهة إلى سابق، وإنما يحتاج إلى جزئيات رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النّص، الذي هو عبارة عن تراكيب أو متابعات متعاقبة خطيّا[٣]، حتى يجعل النّص بأكمله متماسكًا ذا بنية متكاملة كالجّملة الواحدة متناسقة فيما بينها. وهذا الأمر جعل من العَطف وسيلة لفظية ومعنويّة تعمل على إبراز العلاقات النحوية السّياقية فضلاً عن الرّبط الذي يحتل المكان الأوسط والمهم بين علاقتين على طرفي نقيض وهما: الاتصال والانفصال، وهو بهذا يؤدي وظيفة تركيبيّة مهمة في بناء الجّملة والنّص[٤].وبناءً على ذلك أصبح العَطف يقوم بتوليد علاقات دلاليّة أفقية على مستوى الجّملة، وعلاقات دلاليّة رأسية بين الفقرات في بنية النّص، وزيادة على ذلك أنه يربط بين الجّمل على المستوى الخطي، فأدوات العَطف تجعل من المتوالية الجّملية مسارًا خطيًا متماسكًا[٥]؛ لأنَّ دور العَطف الرّبط بين الكلمة والأخرى أو ربط الفقرات مع بعضها أو التركيب الجّملي كي يؤسس عبر ذلك كله بناءً كليًا للنّص متحققًا عبر المستويات كلها، لذا كلما ازدادت أدوات العَطف تكثّف التّماسك بين جزئيات النّص وجمله، ليخرج في النهاية نصًا محكمًا متماسكًا[٦]، وفي ضوء ذلك نجد الإمام علي (عليه السلام) يستعمل أدوات العَطف استعمالاً خاصًا مقصودًا ليبني بواسطته نصه، وليدل عِبرها على معنى خاص لكلّ واحدة منها.

فأداة العَطف (الواو) تستعمل لمطلق الجمع، و(الفاء) تستعمل للترتيب والتّعقيب أي تدل على حصول الحدث مباشرة، و(ثم) تستعمل للترتيب والتّراخي في حالة وجود فاصل زمني قصير، وتدل على المهلة إذا كان الفاصل الزمني طويلاً [٧]، نحو قوله تعالى: ((فأماته الله مائة عام ثم بعثه))، وهذا ما سنعرضه ونقوم بتحليله في نصّ الإمام (عليه السلام). فحرف الواو –على سبيل التمثيل– ما هو إلّا أداة ربط بين طرفين لو سقط جدلاً من النّص لاستقلت كل جملة لوحدها ولأدت معنى دلاليًا مستقلاً عن الأخرى، وهو يختلف عن الحروف الأخرى (الفاء أو ثم)[٨]، فالفاء من ((حروف العَطف في المفردات والجّمل، فإذا كانت للعطف في المفردات فمعناها التّرتيب لفظًا ومعنى أو لفظًا دون معنى... والرّبط والتّرتيب لا يفارقها))[٩]، أمّا (ثم) فهي ((حرف عَطف، يشرك في الحكم ويفيد التّرتيب بمهلة، فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، أذنت بأن الثاني بعد الأول بمهلة))[١٠]وفي ضوء ما تحدثنا عنه نجد أنَّ ((حروف العَطف

(١) من أنواع التّماسك النّصي (التكرار، الضّمير العَطف)، أ.م. مراد حميد عبد الله، مجلة جامعة ذي قار، العدد الخاص، مجلد: ٥، حزيران، ٢٠١٠م: ٥٩.
(٢) ينظر: نحو النّص (اطار نظري ودراسات تطبيقية)، د. عثمان أبو زيند، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م: ١٣٢.
(٣) ينظر: نحو النّص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، مصطفى النحاس، مكتبة ذات السلاسل، الكويت، د.ط، ٢٠٠١م: ٧٢.
(٤) ينظر: نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجّملة العربية: ١٥٨.
(٥) ينظر: أثر العَطف في التّماسك النّصي في ديوان على صهوة الماء: ٣٣٧.
(٦) ينظر: علم اللغة النّصي: ٢٤٨.
(٧) ينظر: معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م: ٢٠٦.
(٨) ينظر: من أنواع التّماسك النّصي: ٥٩.
(٩) نسيج النّص، الأزهر زناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م: ٣٧٠.
(١٠) شرح المفصل، للشيخ العلامة ابن يعيش، تح: احمد السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة: ٧٥/٣.

يتسع مجال تأثيرها أكثر من حروف الجر؛ إذ يمتد هذا التأثير إلى أكثر من جملتين))[١]وهذا ما أكّده عبد القاهر الجرجاني في تفرقته بين (الواو) وهي أشهر حروف العَطف، و(الفاء) التي توجب فضلاً عن الإشراك في الحكم والتّرتيب و(ثم) توجب التّرتيب مع التراخي، و(أو) تفيد التخيير، و(لكن وبل) كل منهما يفيد الاستدراك والاضراب[٢].

وصفوة القول: إن أدوات العَطف تمثل روابط شكليّة لها معانٍ دلاليّة وفقًا للعلاقات المجودة بين الجّمل على مستوى النّص، وهذا الرّبط يتم على وفق أدوات نحوية لها معان محدودة، والسّياق قد يفرض أداة محددة كما قد يفرض معنى محددًا على أداة العَطف المستعملة، والعَطف النّصي يشمل العَطف بين المفردات والجّمل والفقرات والنّصوص، والعَطف يعين في استمرارية النّص على المستوى السطحي للنّص، فضلاً عن تحقيق التّماسك النّصي، ويسهم في إنتاج الدلالة الكليّة للنّص[٣].

وقد تحقق التّماسك النّصي في رسائل الإمام علي (عليه السّلام) إلى مالك الأشتر عن طريق حروف العَطف اذ سجلت الواو مساحة كبيرة في رسائل الإمام (عليه السّلام) وهذا يدل على الاهتمام الكبير من لدن الإمام بوسائل التّماسك النّصي، وذلك قوله:

((اللهَ اللهَ في الطَّبقةِ السُّفلى من الذينَ لا حِيلَةَ لَهُم، والمساكين والمُحتاجين، وأهلِ البُؤسى والزَّمنَى، فإنَّ في هذهِ الطَّبقةِ قانعًا ومعترًا، واحفَظ للهِ ما استحفظَكَ من حَقِّهِ فِيهم، واجعَل لهُم قِسْمًا من بيتِ مالِكَ، وقِسْمًا من غَلَّاتِ صَوَافِي الإسلامِ في كُلِّ بلدٍ، فإن للأقصى منهُم مثل الذي لِلأدنى، وكُلٌّ قد استُرعِيتَ حَقَّه، فلا يَشْغَلَنَّكَ عنهُم بَطَرٌ، فإنَّك لا تُعذَر بتضييعِكَ التَّافِهَ لأحكامِك الكثير المُهِمَّ))[٤]

فالذي يتأمل في النّص سيتجلّى له كثرة استعمال الإمام علي (عليه السّلام) حرف العَطف (الواو) في أغلب مقاطع النّص الموجه لخطاب مالك الأشتر، ليدل على اجتماع المعطوف والمعطوف عليه وتشابههما في القضيّة، زيادة على أنَّ الاكثار من ربط العمل بالواو في النّص يؤكّد اهتمام الإمام (عليه السّلام) بهذه الطبقة الفقيرة الذي تكون (الواو) هي الاداة المثلى لهذه الطبقة المجتمعة. (فالواو) تدل على الجمع المطلق بين المتعاطفين من دون استثناء أو وجود مهملة أو افضلية لطبقة على اخرى من دون وجه حق.

ولهذا اصبح النّص متماسكا في مقاطعه وجمله وتراكيبه غير متباعد في محاوره الاساسيّة، ولو أنَّ الإمام (عليه السّلام) قد استعمل أداة أخرى غير (الواو) للربط بين تراكيب النّص المختلفة لما أدّت الغرض المراد، ولذلك قويت العلاقات بين الجّمل والعبارات والكلمات التي تكوّن النّص. حتّى أصبح الرّبط الدّلالي – بالواو – في النّص مناسباً لما كان يبغيه الإمام (عليه السّلام) من حسن الاهتمام بالطبقة المعدمة من النّاس. وفي ضوء ذلك نجد أنَّ الإمام يلجأ إلى حرف العَطف (الواو) ليجمع بين المعاني والأسماء المتوافقة حتى أصبح الرابط الدّلالي للواو سليما.

وفي قوله عليه السّلام: ((وليس أحدٌ من الرَّعيةِ، أثقَلَ على الوالي مَؤُونَةً في الرَّخاءِ، وأقلَّ مَعُونةً لهُ في البَلاءِ، وأكْرَه للإنصَافِ، وأسألَ بالإلحَافِ، وأقلَّ شُكرًا عندَ الإعطاءِ، وأبْطَأ عُذرًا عِندَ المَنْعِ، وأضعَفَ صَبرًا عندَ مُلِمَّاتِ الدَّهرِ من أهلِ الخَاصَّةِ، وإنَّما عِمادُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ المسلمين والعُدَّةُ لِلأعداءِ، العَامَّةُ من الأُمَّةِ، فَليكُن صَغْوُكَ لهُم ومَيلُكَ معهُم))[٥].

إذ أصبحت (الواو) تشكّل رابطًا دلاليًا رائعًا بين عناصره الجّملية وهذا ما اكسبها دلالة منسجمة والمعنى الموجود في النّص والذي تجسد عبر متواليات نصّية بثّت في النّص الحيويّة والحركة فالإمام لم يستعمل أداة الرّبط (الواو) عبثا بل لغاية مقصودة بوعي ثاقب وفهم عميق، فهذا العَطف بين الجّمل بحرف العَطف (الواو) يدل على أنَّ النّص متكامل لا يحتمل أداة اخرى ولذا أصبحت أجزاؤه متماسكة متتابعة متصلة بعضها مع بعضها الآخر بأداة ربط مناسبة غير مغايرة للمعنى المنساق في النّص باثًا دلالة واضحة مقبولة عبر اختيار قصدي أداتي غير مشتت لانسجام تناسق النّص. وهذا الأمر جعل من استعمال (الواو) في النّص بتتابعيّة ناضجة عبر

(١) علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق: ٢٥٠.
(٢) ينظر: في اللسانيات ونحو النّص، د. إبراهيم خليل، دار المسيرة، عمّان، ط١، ٢٠٠٧: ٢٢٤.
(٣) ينظر: أثر العَطف في التّماسك النّصي في ديوان على صهوة الماء: ٣٣٩.
(٤) نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية، د. صبحي الصالح، انوار الهدى للطباعة والنشر، ايران _ قم، ط٢، ١٤٢٩ه، : ٥٦٠- ٥٦١.
(٥) م. ن: ٥٤٧.

منتج واع للفكرة الذي يكتب لها. ولذلك أصبحت تتابعيّة النّص مستعدة مع بعضها ودالة على فعالية تبادليّة مستمرة، وهنا نجد(الواو) قائمة على عمل ارتباطي في كل مفاصل النّص في اطار تسارع الأحداث وتشابهها وفي نهاية النّص نجده يستعمل أداة ربط أخرى وهي (الفاء) التي تفيد التّرتيب والتّعقيب ليضعها في مكانها المنطقي وليبين عبر ذلك مفاصل النّظام الذي يقوم عليه النّص. حتى اصبح النّص جسدًا متكاملاً مع الادوات المتماسكة الأُخر، فضلا عن ذلك نجد أنَّ الواو عملت على انسياب الفقرات والجّمل والمعاني وحققت التّماسك بين النّص اما الفاء فقد أسهمت في اختزال الحدث والعبارات في جمل قصيرة، ادت إلى التّماسك الدّاخلي للنّص. وقوله(عليه السّلام): ((ولا تَنقُض سُنَّةً صالحةً عمِل بها صُدورُ هذه الأُمَّةِ، واجتمعَت بها الأُلفَة، وصَلحَت عليها الرَّعيَّةُ، ولا تُحدِثَنَّ سُنَّةً تضُرُ بشيءٍ مِن ماضي تلك السُّنَنِ فيكونَ الأجرُ لِمن سَنَّها، والوِزرُ عليك بما نَقَضتَ منها))[1] فالناظر في النّص يلحظ كثرة استعمال حرف العَطف (الواو) عمّا سواه من أحرف العَطف ذلك أنَّ العملية النصّية تمَّت من دون فواصل زمنيّة لمناسبة هذا الحرف لتلك المهمة ولجمع الاحداث المساقة في النّص؛ وليكون النّص أكثر انسجاماً وتماسكًا باتخاذه (الواو) رابطًا نصيًّا له، وفضلاً عن ذلك فأنَّ الإمام (عليه السّلام) استعمل حرف العَطف (الواو) لربط الأفكار والجّمل مع سابقاتها.

ويتبيّن من ذلك أنَّ العَطف يمثّل طاقةً وظيفيّة مهمةً ذات حيويّة ديناميكية تقوّي الدعم الدّلالي للجمل النصّية مما يبقى تماسكها النّصي يمثّل بؤرة تعبيريّة مستمرة ذات أواصر منسقة. وهذا الاستمرار للربط النّصي عبر (الواو) مردَّه إلى أنّ الإمام يعطي دروسًا وعبرًا واسسًا مهمة تبيّن مدى العلاقة المتّصلة بعلاقة النّاس بعضهم ببعض عبر محاولة للإمام في توجيه رسالة لمالك الأشتر ويراد بها ترسيخ القيم والمعاني السّامية في اذهان النّاس ليسيروا على منهج قويم. ومن ثم يلتفت إلى اداة ربط اخرى وهي (الفاء) ليلفت الانتباه وشد الذهن بوساطة ايجاد روابط نصّية مختلفة ليعطي تركيبًا نصيًا متماسكًا يعمل على تحقيق وظائف ذات علاقات متينة. وفي نصٍّ آخر يستعمل الإمام (عليه السّلام) أداة عطف اخرى الا وهي (أو) إذ يقول: ((وإيّاكَ والمَنَّ على رعيَّتِكَ بإحسانِكَ، أو التَّزيُّدَ فيما كان من فعلِكَ، أو ان تعدَهُم فتُتبِعَ موعِدَكَ بِخُلفِكَ، فإنَّ المَنَّ يُبطِلُ الإحسانَ والتَّزيُّدَ يذهبُ بنورِ الحقِّ، والخُلفَ يُوجبُ المَقتَ عندَ اللهِ والنّاس، قال اللهُ تعالى: ((كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ))[الصّف: ٣]، وإيَّاك والعَجَلةَ بالأمورِ قبلَ أوانِها، أو التَّسقُّطَ فيما عِندَ إمكانِها، أو اللُّجَاجَةَ فيها إذا تَنَكَّرت، أو الوَهنَ عنها إذا استوضَحَت. فضع كُلَّ أمرٍ موضِعَهُ، وأوقِع كُلَّ عملٍ موقِعَهُ))[2]. فالمتأمّل في النّص السابق يلمس بسرعة شبكة من الرّوابط التّماسكية التي أنبنى عليها خطاب الإمام (عليه السّلام)، فتنوعت ما بين (الواو) أو (الفاء) ولولاها لأصبح النّص عاجزًا عن أن يكون خطابًا متواصلاً مفهومًا بين الباث والمتلقي.

ولمّا اقتضت ظروف القول التّفصيل لمناسبة الأحداث استعمل الإمام (عليه السّلام) أداة ربط توافق مقتضى الحال فجاء بحرف العَطف(أو) التي زادت من تنظيم النّص وتماسكه عبر موقف محكوم بمعطيات سياقيّة تحقّق تنظيم تلك الأحداث وتماسك العبارات الدّالة عليها. ولمّا احتاج الأمر إلى الايجاز استعمل أداة العَطف (الفاء) التي تفيد ترتيب الأحداث وتعاقبها بفاصل زمني قصير جدّاً، واللافت للنظر أنَّ الإمام (عليه السّلام) قد داخل بين أدوات الرّبط أكثر من مرّة وهذا دليل على ما تتمتّع به هذه الحروف من دلالات ومعانٍ وطاقات ايحائيّة ودلاليّة تزيد من تماسك النّص، وتقوّي من وصله مع بعضه البعض الآخر ما يعطي رؤية اشاريّة للقارئ بأنّ حروف العَطف مرتبطة فيما بينها لتكثف من ترابط النّص ولملمة أفكاره وصقل جمله وربط خيوط النّص مع بعضها لتحقّق نصيّتها، ولتقطع باب التأويل والاجتهاد، وهذا الأمر جعل من وجود الرّوابط النصّية أساسًا في إذكاء العنصر الوظيفي وترسيخ عدم تباعده. ويبدو أنّ السرّ في تنوّع أدوات الرّبط والتركيز على حرف العَطف (أو) التي تفيد التّفصيل هو منح المتلقي المتمثّل بمالك الأشتر عنصر التغيير لمجموعة من الصّفات السّلبية يحثُّ الإمام على الابتعاد عنها مجتمعة وعدم التمسك بها. وفي قوله (عليه السّلام): ((فان شكو اثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو احالة ارض اغتمرها غرق أو اجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو ان يصفح

(١) نهج البلاغة:٥٥٠.
(١) م. ن: ٥٦٨.
(٢) نهج البلاغة:٥٥٧.

به امرهم))[١]. نلحظ أنّ الإمام (عليه السّلام) كرّر حرف العَطف (أو) خمس مرّات، وهذا يعني أنّ الإمام لم يترك شاردة ولا واردة إلا فصّل فيها القول ليرفع عن كاهل النّاس ظلم الراعي، وليجنب الراعي غضب المخلوق وسخط الخالق. وقد أسهم حرف العَطف (أو) في نسيج النّص وفقا للترابط الشّكلي المتتابع والذي حقّق له استمرار التّماسك النّصي بنبرة خطابية مناسبة.

ومن حروف العَطف الأُخر التي استعملها الإمام (عليه السّلام) لأحداث التّرابط النّصي هو حرف العَطف (ثم) قال: ((ثم أسبغ عليهِمُ الأرزاقَ فإنَّ ذلك قُوةٌ لهُم على استصلاحِ انفسهِم، وغنىً لهم عن تناولِ ما تحتَ ايديهِم، وحجةٌ عليهِم إن خالفُوا أمرَكَ، أو ثَلَمُوا أمانَتَك))[٢]. وكأنَّ الإمام (عليه السّلام) أراد أنْ يُلفت نظر مالك الأشتر إلى أنّ الأحداث ومعالجتها ترتبط بالتجارب، لذا يجب التعامل معها على مهل، فمعالجة مشاكل الرعيّة واعطائهم حقوقهم، وتذكيرهم بواجباتهم يتطلّب وقتاً، وقد ناسب ذلك استعمال حرف العَطف (ثم) الذي يفيد التّرتيب والتراخي والمهلة فمن الأحداث ما يتطلّب وقتا قصيرا لتنفيذها أو معالجتها ومن الأحداث ما يتطلّب مهلة وزمنا طويلا، فاسباغ الأرزاق عليهم لم يحصل الا بعد معالجات عدّة منها ما يخصّ الراعي ومنها ما يخصّ الرعيّة.

وقد زاد التّماسك النّصي التّرابط الوثيق بين حرف العَطف (ثم) وحرف العَطف (الواو) الذي أفاد جمع الأشتات كلّها. وفي نهاية المبحث نجد ان القيمة الاحصائيّة لحروف العَطف قد شكلت الواو نسبة كبيرة عن الاحرف الاخرى اي بعدد(٤٢٨) من مجموع الرّسائل، ثم تلتها (الفاء) وقد بلغت (١٠٥)، ثم تلتها الاحرف الاخرى بنسبة قليلة جدًا مقارنة بالحرفين السّابقين اذ بلغ عدد (أو) (٢٠) في حين بلغت (ثم) (١٥)، أما النسبة التي لا تكاد تذكر الا وهي (بل) فقد بلغت عدد (١).

المبحث الثاني: التّماسك النّصي بالضّمير

الضّمائر: جمع ضمير. والضّمير: هو السّر، والشيء الذي تستطيع أنْ تضمره في قلبك والضّمير والمضمر بمعنى واحد، من اخفيت الشيء اذا ضمرته[٣]، والضّمير اسم جامد مبني، وبسبب بنائه لا نستطيع ان نثنيه أو نجمعه، ولذلك لا تلحقه علامة التثنية أو الجمع. وإنَّما يدل بذاته وصيغته على المفرد أو المثنى أو الجمع (المذكر أو المؤنث)[٤]. ويلجأ علماء العربيّة إلى الرّبط بوساطة لفظية حين يخشون أمن اللبس في فهم الانفصال بين معنيين، في فهم الارتباط بينهما، والوساطة اللفظيّة، اما ان تكون ضميرا منفصلا أو متصلا، وما يجري مجراه من العناصر التّماسكية التي تقوي تماسك النّص وتزيد قوته[٥]، ومن هنا لا تصبح الرّوابط التّماسكية كلها تؤدي وظيفة معينة بل تختلف من رابط إلى اخر ((وليس الرّبط بالضّمير كالرّبط بالأداة، فوظيفة الرّبط بالضّمير ناشئة مما سبق الضّمير من اعادة الذكر، وفي هذا تعليق وائتلاف وربط))[٦]. وهذا الأمر جعل من استعمال الضّمير في النّص ضرورة حتمية لا يمكن ان يكتمل النّص من دونه إذ السّياق يقتضيه والدلالة تستدعيه لكي يتماسك النّص ويتحقق الانسجام. ولذا أصبح معنى الضّمير ((وظيفي وهو الحاضر أو الغائب على اطلاقهما فلا يدل دلالة معجمية الا بضميمة المرجع وبواسطة هذا المرجع يمكن ان يدل الضّمير على معين))[٧]، وعلى هذا فدلالة الضّمير على المعاني المختلفة ترتبط بالسّياق الذي يرد فيه، فيعطي إحالات متعدّدة ذات أهميّة بالغة. وفي ضوء ذلك أصبح الضّمير يؤدي وظيفة كبيرة في ربط النّص، فوظيفته تتّسع لتشمل وصل التركيب، كما تؤديها المعاني الرابطة، لكنه يختلف عن أدوات الرّبط الأُخر، بوصفه يقوم على اعادة الذكر، في حين تعتمد تلك الادوات على معانيها الوظيفيّة التي تحدد نوع العلاقة المنشأة، كأدوات الشرط، وادوات العَطف، وحروف الجر[٨]، فالجّملة ((كالعقد الذي يجمع بين حباته سلكًا وثيقًا، ولابد ان يبقى السّلك متصلاً، والا ما استطاع الرائي ان يفهم من شكله معنى العقد، وهذا هو الارتباط، فاذا انقطع السّلك،

(١) م. ن:٥٥٧.
(٢) نهج البلاغة: ٥٥٦.
(٣) ينظر: لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠:مادة (ضمر).
(٤) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، ط١، ١٩٩١، ١: ٢١٧-٢١٨.
(٥) ينظر: التّماسك النّصي بين النظرية والتطبيق سورة الحجر أنموذجًا، فطومة الحمادي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، سبكرة، الجزائر، كليّة الآداب والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٤م: ٧٠.
(٦) نظام الرّبط والارتباط في تركيب الجّمل العربية، مصطفى حمودة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م: ١٥٥.
(٧) اللغة العربية معناها ومبناها.١١١
(٨) ينظر: نظام الارتباط والرّبط: مصطفى حمودة: ١٥٢-١٥٣.

يعالج بطريق الرّبط وذلك ما يعمله الضّمير))[١]، وهذا السّلك الوثيق لا يقتصر على الضّمير بل لابد من مشاركته للأدوات التّماسكية الأُخر لأحداث الارتباط اللازم، ولذا يفترض أنْ لا نركّز على وظيفة أداة ونهمل وظائف الأدوات الأُخر. وبطبيعة الحال تعد الضّمائر ((افضل الامثلة على الادوات التي يستعملها المتكلّمون للإحالة إلى كيانات معطاة))[٢]، وهذه الإحالات أو العناصر تستوجب متلقيًّا واعيًّا لكي يفسرها ويكشف عن معانيها، ذلك أنَّ الضّمير يؤدّي وظيفة الاختصار والايجاز في الكلام، ومن هنا عُدَّ: ((اقوى انواع المعارف ولا يدل على مسمى كالاسم، ولا على الموصوف بالحدث كالصّفة، ولا حدث وزمن كالفعل، فالضّمير كلمة واحدة تدل على عموم الحاضر والغائب دون دلالته على خصوص الغائب))[٣]، ولم تتوقف أهميته عند ذلك بل تتسع لتصبح له ((ميزتان الأولى: الغياب عن الدائرة الخطابية، والثانية القدرة على اسناد اشياء معينة، وتجعل هاتان الميزتان من هذا الضّمير موضوعا على قدر كبير من الأهميّة في دراسة تماسك النّصوص))[٤]. وزيادة على ذلك فالضّمائر تحلّ ((محل كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل. ولا تقف أهميتها عند هذا الحد، بل تتعداه إلى كونها تربط بين اجزاء النّص المختلفة شكلا ودلالة، داخليا وخارجيا سابقة ولاحقة))[٥]. وهذا كله جعل للضمائر أهميّة فائقة في تحقيق التّماسك.

وتنقسم الضّمائر في العربية على قسمين: ضمائر الحضور وضمائر الغياب وتتفرع ضمائر الحضور إلى ضمائر المتكلّم بوصفها مركز المقام الاشاري، فالمتكلّم هو الباث. وإلى ضمائر المخاطب، لأنَّ المخاطب هو الذي يقابل المتكلّم في ذلك المقام ويشاركه فيه فهو المتقبل[٦]. وهي ضمائر تحيل إلى خارج النّص اذ تندرج تحت مظلتها جميع الضّمائر الدّالة على المتكلّم والمخاطب.

وهناك ضمائر تؤدي دورًا مهمًا ومرموقًا في تماسك النّص سماها هالداي ورقية حسن (أدوارًا أُخر) تندرج تحتها ضمائر الغيبة إفرادا وتثنية وجمعا اذ تحيل داخل النّص، وتتفاوت الضّمائر فيما بينهما في الأهميّة والاختصار، فالضّمير المتّصل أشد اختصارًا من المنفصل، حتى عدَّ استعمال الضّمير المتّصل أبلغ في الاختصار وادعى إلى الخفّة والاقتصار، وهذه العناصر الثلاثة من مطالب الاستعمال اللغوي، لذلك لم يعدلوا عن استعمال المتّصل الا عند تعذره[٧]. وهذا ما سنوضحه في تحليلنا لرسائل الإمام علي(عليه السّلام) إلى مالك الأشتر إذ نلحظ كثرة الضّمائر بأنواعها ظاهرة ومستترة في رسائل الإمام على نحو لا تكاد تخلو جملة منها لتؤدّي عملية ترابطية لتماسك النّص. ومن ذلك قوله (عليه السّلام): ((أنصِفِ اللهَ وأنصِفِ النّاس من نفسِكَ، ومِن خاصَّةِ أهلِكَ، ومَن لكَ فيهِ هوىً مِن رعيتِكَ، فإنَّك الَّا تفعل تَظلِم، من ظلم عِبادَ اللهِ كانَ اللهُ خصمَهُ دون عبادِهِ، ومَن خاصمَهُ اللهُ أدحَضَ حُجَّتَه وكان للهِ حربًا حتى يَنزِعَ أو يَتوبَ))[٨].

فالناظر في هذا النّص يلحظ ضمير الخطاب طاغيًا على أغلب جمل النّص، ذلك أنّ الخطاب في الرّسالة من بداياتها موجه إلى مالك الأشتر، ولهذا كان هذا الضّمير هو الأمثل لتماسك النّص وترتيبه.

وقد كان للضمير (أنت، والكاف) دورًا بارزًا في رسالة الإمام وإيضاحها إذ الدلالة تقتضيه والسّياق يستدعيه.ومن ذلك ضمير المخاطب (أنت) في فعل الأمر (أنصِف الله) و(أنصِف النّاس) الذي كُرّر مرتين والضّمير الكاف في (أهلك، نفسك، لك، رعيّتك، فانّك.... الخ) الذي كُرّر أكثر من مرّة، يعودان على مالك الأشتر، فأدى هذا الضّمير وظيفة خدمت العملية الاتصالية وأسهمت بشكل فعّال في توصيل الرّسالة إلى المتلقي فأمنت الالتباس والغموض الذي يتمتع به النّص فضلا عن ذلك فقد أعطى أهميّة في تشكيل المعنى وقام بإبرازه وكل ذلك جاء عن طريق الرّبط الصحيح للضّمير زيادة عن العناصر التّماسكية الأخر، ولولا الضّمائر لما عرفنا

(١) نظام الارتباط والرّبط: ١٩٥.
(٢) تحليل الخطاب، براون ويول، تر: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٨م: ٢٥٦.
(٣) المصطلحات الأساسية في لسانيات النّص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، إربد، د.ط، د.ت: ١٢٢.
(٤) علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق: ١٦١.
(٥) م. ن: ١٣٧/١.
(٦) ينظر: لسانيات النّص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦م: ١٨.
(٧) ينظر: من التّماسك في سورة يونس، حسين راضي العابدي، محية جامعة الازهر، غزة سلسلة العلوم الانسانية، ٢٠١٣، مج(١٥)، ع(٢): ٤٢.
(٨) نهج البلاغة:٥٤٧.

عود الضّمير ولاختلطت لدينا إحالته ولأصبحت إحالته مبهمة لا نستطيع ان نميّزها. وهذا الامر عزز دور الضّمائر وإسهامها في بناء النسيج العام للنّص.

ولم يكتفِ الإمام (عليه السّلام) بربط الجّمل بضمير الخطاب فحسب وإنّما سرعان ما يغيّر الإحالة المفهومية للنّص عن طريق ضمير الغائب الذي تتغير إحالته من فعل لآخر بحسب السّياق العام الذي يرد فيه. ومن ذلك قوله (عليه السّلام):(من ظلم عبد الله) (ومن خاصمه الله أدحض حجته) و(حتى ينزع أو يتوب)، فهذا التنوّع في الضّمائر يمنح النّص فرصًا واسعة للقراءة والتأويل ويشدّ من اهتمام المتلقين. زيادة على أنّه يزيد من اسهام المتتاليات النصّية في تماسك النّص.

ويرى الباحثان أنّ الرّسالة وإنْ كانت موجّهة إلى مالك الأشتر بما انتظمتْهُ من الضّمائر المتنوّعة المنتشرة على أكثر مفاصل الرّسالة إلّا أنَّ قصديّتها الحقيقيَّة هو الإنسان على مدار العصور، أي أنّ الخطاب وإنْ أُريد به الخصوص الا أنّه عام في النّاس جميعاً، وهذا الأمر جعل الرّسالة متجدّدة وشمولية لاتقف عند حدٍّ معين بل تستمر إلى قيام الساعة بوصفها رسالة تنطبق على كل زمان ومكان، وأحداثها المتتالية موصوفة وصفا دقيقا بوعي جاد.

ويستمر الإمام احالته الضّميرية المساهمة في الرّبط النّصي من ذلك قوله(عليه السّلام): ((أطلق عن النّاس عُقدةَ كُلِّ حقدٍ، واقطع عنكَ سبَبَ كُلِّ وِترٍ، وتَغابَ عن كُلِّ مالا يَصِحُّ لك، ولا تَعجلَنَّ إلى تصديق ساعٍ، فإنَّ الساعِيَ غاشٌ، وإن تَشَبَّه بالناصحين))[١] فالضّمائر التخاطبية على طول النّص اجتمعت وكونت نصًا متماسكًا على نحو من الدقة مما اعطت قيمة عليا للنّص، ولذا نجد الضّمائر قد حققت المهمة المقصدية للباث، إذ أحالت الى المخاطَب (مالك الأشتر) عبر الضّمير الذي امتد على الأفعال والأسماء التي انتظمها النّص كلها. وقد توافرت بفعل افعال الأمر (أطلق، اقطع).

ومن هنا نجد مرجعية النّص واحدة وهي (مالك الأشتر) المتوزعة في النّص بدليل افعال الامر والضّمير الكاف الذي قصد به (مالكًا) وهذه المرجعية التي زادت من تماسك النّص وقوت روابط ابنيته تحققت بفضل ضمير المخاطب ومن هنا اصبح ((عودة الضّمير على اسم قبله يجعل النّص في حالة تماسك مستمرة، ذلك ان الضّمائر تخلق في النّص حركة دائرية بين المحيل والمحال عليه، فكل منهما ينزل منزلة الاخر، مما يجعل ذهن المتلقي في حالة استدعاء تام للمحال عليه أو في حالة بحث عنه، مما يضمن تحقيق تماسك النّص وترابطه))[٢] وإن ما يحدّد هذه الضّمائر ويزيل الغموض والابهام عنها هو المتلقي الذي يعد عضوا فعالا لا تقل أهميّته عن الباث أو صاحب النّص فيعد مشاركا داخلا في بوتقات النّص ليضمن التّماسك الوثيق للنّص. وهذا الامر جعل من استعمال ضمير المخاطب في النّص المذكور آنفا لمناسبة الاحداث والمهام التوجيهية التي لا يتناسب معها ضمير آخر سوى ضمير المخاطب وهذا ما يتطلبه السّياق العام للنّص. ولكننا في نص آخر للإمام نجد ضمير الغائب مُتجلّيًا تجلّيًا واضحًا على طول النّص وعرضه ومن ذلك قوله(عليه السّلام): ((وليس احد من الرعية، أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرًا عند الاعطاء، وأبطأ عذرًا عند المنع، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من اهل الخاصة، وإنّما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء، العامة من الامة، فليكن صفوك لهم، وميلك معهم))[٣].

والذي يتأمّل في النّص المذكور آنفاً يلمس بصورة جلية أنّ الإمام (عليه السّلام) تحوّل من الخطاب المباشر إلى مالك الأشتر إلى ضمائر الغيبة الممتدّة على أغلب مفاصل النّص وهي عائدة على (النّاس) بصورة عامة. فالضّمائر الغائبة في الأفعال:(أثقل، أمل، أكره، أسأل، أقل، أبطأ، .....الخ) قامت بوظيفة الرّبط النّصي، وأبعدت النّص عن التفكّك اللفظي، والإحالة فيها واحدة تشير إلى عنصر اشاري سابق وهو (الانسان) والذي اشار إليه بقوله (أحد).

فالإمام عمد إلى تكثيف الضّمائر الغائبة ليعزّز من وحدة التّماسك وليوسع من دلالة النّص، وذلك بِعَودِ الضّمير الغائب على مالك الأشتر مرّة وعلى الإنسان مرّة أخرى، فالدلالة مقيدةٌ بتأويل محدّد ضمن إطار معيّن.

(١) نهج البلاغة:٥٤٨.
(٢) التّماسك النّصي في بنية حكم ابن عطاء الله السكندري، محمد محمود عيسى محاسنة، جامعة آل البيت، كليّة الآداب والعلوم الانسانية، رسالة ماجستير:٥١.
(٣) نهج البلاغة: ٥٤٧.

وسرعان ما يعود الإمام إلى ضمير الخطاب في قوله: (فلْيكن صفوك لهم) و(ميلك معهم) ليحيل إلى العنصر الاشاري الرئيس الذي وُجّه إليه الكلام منذ بداية الرّسالة، وهو محور العملية الارسالية. وبيّنّ أنّ الرّبط النّصي بالضّمائر المتنوّعة أفاد في توجيه الخطاب إلى مالك الأشتر خصوصا والنّاس عموما.

وفي قوله (عليه السّلام):((ثم أسبغ عليهِمُ الأرزاق، فإنَّ ذلك قُوةٌ لهم على استصلاحِ أنفسهِم، وغِنىً لهم عن تناول ما تحتَ ايديهِم، وحُجةٌ عليهِم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانَتَك))[١]، ولعل الناظر في النّص السّابق يلحظ كثرة الضّمائر الموجودة في النّص واختلاف احالاتها مما تعطي اسهاما فعالا في تماسك النّص ولملمة أشتاته. فالضّمير المخاطب في فعل الامر(أسبغ) يحيل احالة وهي (مالك الأشتر) اما الضّمير المتّصل الجمعي (هم) يحيل احالات على ذوات غير محددة منها (النّاس)، فهذه الضّمائر المستترة الغائبة والمتّصلة الظاهرة في العبارات المذكورة آنفا عملت مع بعضها وتماسكت لتكون بمجموعها وحدة إحاليّة رئيسة يقوم عليها النّظام العام للنّص أو الرّسالة بأكملها. لذا نجدها موزعة بصورة منتظمة تعطي نواة نصّية متماسكة لتقرَّ في النهاية على إحالتها لبثّ النّص ويأتي ضمير النّصب المنفصل تاليًا في نهاية رسالة الإمام علي (عليه السّلام) ويحتل نسبة قليلة مقارنة بالضّمير التخاطبي فقوله (عليه السلام): ((إياك والدماء وسفكها بغير حلها))[٢]، وقوله: ((وإياك والإعجاب بنفسك))[٣]، ((وإياك والمن على رعيتك بإحسانك))[٤] وقوله: ((واياك والاستئثار بما النّاس فيه اسوة))[٥].

فالذي يتعمّق في هذه المقاطع النصّية يجد غلبة ضمائر النّصب المنفصلة بصورة جلية وهذا مرده إلى أنَّ ختم الرّسالة بها يعطي قرارًا تحذيريًا شديدًا لمالك الأشتر، ويرسل رابطا نصيًّا ملتصقًا بوظيفيّة تحذيرية عظيمة، ولذلك حمل هذا الضّمير كلامًا ملائمًا للسّياق العام للنّص والرّسالة بأكملها فالسّر في استعمال هذا الضّمير هو للرهبة والوعيد لمن يزيغ عن طريق الحق فضلا عن منحه النّص عنصرا تشويقيا متعلقا يشدّ المتلقي اليه من دون ملل أو تشاؤم، وهذه الضّمائر المتنوعة والمنتشرة في السّياق العام للنّص كونت لحمة متماسكة بثت في النّص ما يحرّر طاقاته لتصنع في النهاية نصّا متكاملا يحمل دلالات متنوعة يتوقف معناها على قدرة القارئ أو المتلقي في الامساك بخيوطه، وهذا الامر جعل من ترتيب الضّمائر بصورة منتظمة ما يُجلّي الوحدة الموضوعية للرسالة فضلا عن تماسك ابنيتها وترابطها بصورة تكاد تكون نصّا واحدًا. وهذا الانتشار أو التعدد في الضّمائر يبين مدى قوة النّص وشدة انتظامه بما يدل على ما يشتمل عليه الضّمير من اختصار وايجاز ورصانة شديدة في تحقيق التّماسك العام للنّص. فكل العبارات التي تتضمن ضمير النّصب المنفصل جاء فيها العنصر التحذيري بارزًا يؤدي وظيفة توجيهية تحذيرية يدعو فيها مالك الأشتر إلى الالتزام الوثيق بمبادئ الإسلام بصورة عامة فضلا عن تأكيده عبر تهيئة الذات الانسانية عِظَم تلك الامور ومدى تأثيرها النفسي على الانسان بصورة مهمة. اما ضمير المتكلّم فانه يكاد لا يذكر في الرّسالة غير مقطع قصير جدا جاء في المقطع الاخير وهو لا يتعدى (أربعة أسطر) وهذا بحسب اعتقاد الباحثَينِ – امر طبيعي لأن ضمير المتكلّم لا يناسب المقتضى العام للنّص ولا يتفق والفكرة المعروضة من لدن الإمام وهذا ما يتضمنه قوله ((وأنا أسألُ اللهَ بسَعَةِ رحمتِهِ، وعظيمِ قدرتِهِ على إعطاءِ كُلِّ رغبةٍ أن يوفِّقني وإياك لِما فيه رضاهُ من الإقامة على العُذرِ الواضح اليهِ وإلى خَلقِهِ، مع حُسنِ الثَّناءِ في العِبادِ، وجميل الأثرِ في البلادِ، وتمامِ النِّعمةِ، وتضعيف الكرامةِ، وأن يَختمَ لي ولكَ بالسَّعادةِ والشَّهادةِ، وإنَّا اليه راغبون))[٦] فضمير المتكلّم قد كثر دورانه في المقطع النّصي الأخير إذ ذُكر في جمل عدة متتالية مسترسلة مكونة بمجموعها حدثا نصّيا متكاملا مؤديا معنى مقصودا متماسكا. فالضّمير وجد عبر صيغ عدة منها (الضّمير المنفصل(أنا)، في الفعل(أسأل)، ومنها الضّمير المتّصل (الياء) في (يوفقني) وهذه الصيغ المتنوعة قد ولدت نصا توليديًا يعطي معانيا

(١) نهج البلاغة:٥٥٦.
(٢) م. ن: ٥٦٧.
(٣) م. ن: ٥٦٧.
(٤) م. ن: ٥٦٨.
(٥) م. ن: ٥٦٨.
(٦) نهج البلاغة:٥٦٩.

متفجرة عبر شحنات عالية الأداء. وهذا الاختلاف الادائي لضمير المتكلّم هو من أجل سبل النّص وترتيبه ليحيل في النهاية احالة متعددة ذات اشارة مقصدية وهي (الله) سبحانه وتعالى، أي إنه ضمير يحيل به إلى الذات الالهية، ومن هنا عزز فكرة التّماسك وزاد من قوة ارتباطها عبر الوعي والإحاطة الكبيرة من لدن الإمام (عليه السّلام)، فضلا عن ذلك نجد أن المعنى عبر هذا التعدد قد زاد من حضوره وتعمقت دلالته حتى أصبحت عناصره مترابطة فيما بينها.

وفي الختام نستطيع أن نقول: إنَّ أغلب الإحالات الضّميرية إحالات متخذة من ضمير المخاطب طريقا لها عبر صور وحالات شتى وهذا التواجد المكثف لضمير المخاطب له وظيفة مهمة في تماسك نص الإمام (عليه السّلام) على المستويات كافة حتى أسهمت في دفع الملل عن المتلقي. زيادة على ذلك وجدنا أنّ استعمال الإمام لضمير المخاطب كان مقصودًا لكي يوصل الرّسالة والأوامر بصورة غير مباشرة إلى عموم متلقّي الخطاب فيما بعد، ولكي لا يتّخذ المخاطب موقفاً سلبيّاً أو عدائيّاً من هذه الأوامر أو التوجيهات. وهذه تدل على عظم خلق مالك الأشتر وتسليمه للإمام وقبوله لأوامره المباشرة من دون أنْ يأخذ منها موقفاً عدائيّاً، وهذه أعطتنا فائدتين: الأولى: قبول النّاس لهذه الأوامر بصورة غير مباشرة. والثانية تسليم مالك الأشتر وانقياده التام للإمام (عليه السّلام). وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- تحليل الخطاب، براون ويول، تر: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٨م.
- التّماسك النّصي في ديوان (أغاني الحياة) لأبي القاسم الشابي، دراسة أسلوبية، كريمة صوالحية، كليّة الآداب واللغات، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر، باتنه، ٢٠١١م.
- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن البحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- شرح المفصل، للشيح العلامة ابن يعيش، تح: احمد السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- علم لغة النّص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد البحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، دار نوتال، القاهرة، ط١، ١٩٧٧م.
- علم لغة النّص، النظرية والتطبيق، عزة شبل محمد، تقديم: سليمان العطار، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٧٧، القاهرة.
- علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة: ٢٠٠٠م.
- في اللسانيات ونحو النّص، د. إبراهيم خليل، دار المسيرة، عمّان، ط١، ٢٠٠٧.
- لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- لسانيات النّص، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٦م.
- اللسانيات والمجال والوظيفة والمنهج، سمير شريف، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠٠٥م.
- المصطلحات الأساسية في لسانيات النّص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، إربد، د.ط، د.ت.
- معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م.
- نحو النّص (اطار نظري ودراسات تطبيقية)، د. عثمان أبو زيند، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠١٠م.
- نحو النّص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، مصطفى النحاس، مكتبة ذات السلاسل، الكويت، د.ط، ٢٠٠١م.
- نحو النّص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ط١، ٢٠١١م، القاهرة.
- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، ط١، ١٩٩١.
- نسيج النّص، الأزهر زناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

- نظام الرّبط والارتباط في تركيب الجّمل العربية، مصطفى حمودة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- نهج البلاغة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية، د. صبحي الصالح، انوار الهدى للطباعة والنشر، ايران _ قم، ط٢، ١٤٢٩هـ.

الدّوريات

- من التّماسك في سورة يونس، حسين راضي العابدي، مجلة جامعة الازهر، غزة سلسلة العلوم الانسانية، ٢٠١٣، مج(١٥)، ع(٢).
- أثر العَطف في التّماسك النّصي في ديوان (على صهوة الماء) للشاعر مروان جميل محيسن، دراسة نحوية دلاليّة، د. خليل عبد الفتاح، ود. حسين راضي العابدي، جامعة الأقصى، غزة، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، مج: ٢٠، ع: ٢، لسنة ٢٠١٢م.
- اللغة العربية معناها ومبناها من أنواع التّماسك النّصي (التكرار، الضّمير العَطف)، أ.م. مراد حميد عبد الله، مجلة جامعة ذي قار، العدد الخاص، مجلد: ٥، حزيران، ٢٠١٠م.

الرّسائل الجامعية

- التّماسك النّصي بين النظرية والتطبيق سورة الحجر أنموذجًا، فطومة الحمادي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، سبكرة، الجزائر، كليّة الآداب والعلوم الاجتماعية، ٢٠٠٤م.
- التّماسك النّصي في بنية حكم اين عطاء الله السكندري، محمد محمود عيسى محاسنة، جامعة آل البيت، كليّة الآداب والعلوم الانسانية، رسالة ماجستير.